إهـــــداء

إلى رمز التضحية والعطاء بلا حدود

إلى أمي العظيمة عرفاناً مني بالجميل

وأدعو من الله أن يجزيها عني خير الجزاء

obeikandl.com

obeikandl.com

تصدير

بقلم أ.د. مصطفى النشار

يعتبر أبوبكر الرازى (251 هـ =864م – 313هـ -925م) واحدا من أهم من أنجبتهم الحضارة العربية الإسلامية حيث كان بفلسفته وإبداعاته العلمية العلمية رائدًا من رواد الحركة الفلسفية والعلمية العالمية.

وفى اعتقادى أن سر تميز الرازى يكمن فى مزواجته بين الفلسفة والعلم، وربما لم يكن يضاهيه فى الأصالة والإبداع أو فى كليهما إلا أرسطو قديمًا، كما أن الرازى لم يكن فى كلتا الحالتين شارحًا أو تابعًا لمدرسة فلسفية أو علمية بعينها بل كان صاحب رؤية أصيلة ومنهج فلسفى وعلمى رصين ابتدعه هو وسار عليه.

وليس أدّل على ذلك من مخالفته فلاسفة وعلماء عصره، ففى مجال الفلسفة كان مبدعًا ويتجلى إبداعه وأصالته فى حديثه عن الألوهية والعالم وهى موضوع الكتاب الذى بين أيدينا.

فقد خالف الرازى أرسطو فى الكثير من آرائه الفلسفية حيث رفض رأى أرسطو حول اعتبار المادة وجودًا بالقوة، واعتبرها وجودًا بالفعل، كما خالفه فى رأيه حول طبيعة المكان، وإن كنا نرى أنه أقرب إلى التأثر بأفلاطون فى الكثير مما ذهب إليه حول هذين الموضوعين تحديدًا، إلا أنه أيضًا لم يوافق على الكثير مما كان يراه أفلاطون.

لقد تأثر الرازى بمحاورة "طيماوس" الأفلاطونية وتحدث متأثرًا بها عمَّا أسماه المبادئ الخمسة الأزلية: الهيولى، الخلاء، الزمان، النفس والبارى وهى تمثل نواة مذهبه فيما بعد الطبيعة، وهو يميل كأفلاطون إلى القول بأن الإله صنع العالم من مادة قديمة.

والحقيقة أن القضية لم تكن لدى الرازى تتعلق بالتساؤل عن هل العالم محدث أم غير محدث؟، بل كانت تتعلق بمعضلة أشد تعقيدًا هى: هل خلق الله العالم بحكمة "ضرورة طبيعية" أم بداعى "إرادة حرة" ؟ فإذا قيل أن ذلك إنما كان بضرورة طبيعية

كانت النتيجة المنطقية فى عرفه أن اللّه الذى خلق العالم فى الزمان هو نفسه أيضًا فى الزمان ما دام المعلول البطبيعى مكافئًا لعلته الطبيعية ضرورة فى الزمان، أما إذا اعتبر وجوده نتيجة فعل إرادة حرة فإن سؤالا آخر لابد أن يسأل وهو : لماذا اختار اللّه أن يخلق العالم فى الوقت الذى خلقه فيه بدلا من أى وقت آخر!!

وبالطبع فإن الرازى يرد على هذا السؤال وغيره من الأسئلة التى تكشف عن عقلية فلسفية متسائلة ومبدعة.

ومن ثم فقد كان الرازى فيلسوفًا أصيلا بقدر ما كان عالماً بارعًا له إسهاماته البارزة فى مجال الطب والكيمياء، ولعل أبرز ما قدمه الرازى فى هذين المجالين ليس كشوفه العلمية الكثيرة، وإنما رؤيته المنهجية للدراسة فى هذين العلمين، تلك الرؤية التجريبية التى أسست للمنهج العلمى بخطواته وآلياته التى استبق الرازى فيها كل فلاسفة العلم الأوروبيين المحدثين.

وعلى كل حال فقد كتب الكثيرون عن الرازى طبيبًا وعالمًا كيميائيًا، وقلت الكتابات عن الرازى فيلسوفًا، وهذا هو ما يعطى لكتابنا هذا أهمية خاصة حيث أن الدكتور وليد مؤلفه يركز فيه على دراسة فلسفة الرازى فى اثنين من أهم القضايا الفلسفية، قضية الألوهية، وقضية العالم الطبيعى ، وفلسفة الرازى الطبيعية، وقد أحسن كاتبنا صنعًا حينما قدم لدراسته لهذين الموضوعين الفلسفيين الهامين عند الرازى، بدراسته لحياة الرازى ولإنجازاته فى مجالى الطب والكيمياء حتى يدرك القارئ الصلة بين إبداعات الرازى العلمية وبين آرائه الفلسفية التى كانت حتما متأثرة بهذه النزعة العلمية التجريبية عنده.

والحقيقة أن هذا الكتاب عن فلسفة الرازى يسد نقصًا واضحًا فى المكتبة العربية التى ركزت جلها على دراسة إنجازات الرازى العلمية كما أشرنا فيما سبق وأهملت دراسة الجوانب الفلسفية من فكره، وقد تميزت هذه الدراسة لآراء الرازى فى الألوهية والعالم بالرجوع إلى المصادر الأصلية، أى لكتابات الرازى نفسه وعرضها بأسلوب فلسفى رصين فيه الكثير من المقارنة والبحث عن الأصول، أصول أفكار الرازى الفلسفية، وفى البحث عن المصادر والأصول يكتشف القارئ فى ضوء عرض المؤلف

مدى أصالة الرازى الفلسفية، ومدى قدرته على تجاوز الآراء السابقة فى كل موضوع يتعرض لدراسته، فهو قد يتأثر هنا أو هناك بأفلاطون أو بأرسطو أو بأى من متكلمى وفلاسفة الإسلام السابقين عليه لكنه كان قادرًا دائمًا على نقد هذه الآراء وتجاوزها والكشف عن مذهب جديد هو مذهب الرازى نفسه حول هذا الموضوع أو ذاك.

إن الكتاب يقدم وجبة دسمة عن الرازى فيلسوفًا، نتمنى أن يتلقاها القارئ بشغف وحب، فما أجمل البحث الفلسفى الذى يكشف فيه الفيلسوف عن جوانب للحقيقة كثيرًا ما تغيب عن الإنسان العادى! وما أجمل البحث الفلسفى الذى يقترن بالعلم لدى أمثال هذا الفيلسوف والعالم الفذّ : أبو بكر الرازى!

فمهما قال ومهما اختلفت معه فى آرائه لن تجده إلا عالمًا مبدعًا وفيلسوفًا قديرًا يكسب احترامك ، وتقديرك ويجعلك تتساءل:

أين نحن الآن من هؤلاء الفلاسفة والعلماء الأفذاذ فى تراثنا الفلسفى والعلمى ؟!

وأين يقف علماؤنا وفلاسفتنا اليوم من نهر الإبداع العالمى ؟!

وهل يمكن أن نعود يومًا إلى الريادة فى هذين المجالين كما كان الأجداد ؟!

وفى هذه التساؤلات ومحاولة الإجابة عليها يمكنك عزيزى القارئ أن تلمح ربما ذلك الضوء القادم من بعيد مبشرًا ربما بعصر فكرى جديد للعرب والمسلمين!

فهل نحن فى بداية الطريق إلى ذلك أم لا نزال غائبين عن الوعى بأهمية الفلسفة والعلم والإبداع فيهما كأساس لتقدم الأمم وصنع الريادة الحضارية؟!

أ.د. مصطفى النشار

أستاذ الفلسفة بكلية الآداب – جامعة القاهرة

مدينة نصر فى 29 ديسمبر 2015م

الموافق 18 من ربيع الأول 1437هـ.

مُقدّمة

الحديث عن التراث العربي والإسلامي وتاريخه من الموضوعات الهامة التي شغلت بال المفكرين لمعرفة حضارتهم الإسلامية وما ورثة العالم كله من علماء العرب على مر العصور والتعريف بسيرتهم الذاتية ومقدرتهم العلمية من شأنه أن يولد في نفوس الشباب شعوراً بالفخر والاعتزاز يدفعهم إلى السير على نهج السلف الصالح في رفع مستوى الأمة العربية ويسجل فضل هؤلاء العرب في إثراء المعرفة العلمية إلى التقديم والرقي فالتراث لا يزال بكرًا في مظانه مختلفة.

والدراسات التراثية لها دورها في تصحيح تاريخ العلم يكشف النقاب عن الحالات السيئة التي تعرض لها التراث الإسلامي على أيدي بعض المؤرخين والنقلة والمستشرقين ومنابع الفكر الإسلامي تكشف لنا عن الإيجابية والتجديد والشمول والقدرة على التطوير والحركة والإلتقاء بالحضارات والفكر الإنساني، فقد كان هذا الفكر عصرياً صالحاً لكل زمان ومكان.

والفكر الإسلامي يقوم على توحيد سيادة الإنسان للكون تحت حكم الخالق وفق ترابط القيم وتكاملها وفق نظرية الشمول من أجل بناء الإنسان بناء إيجابياً يدفعه إلى الكفاح دون أن يزهده في الدنيا المليئة بالملذات والشهوات وأن يتجه إلى العالم العقلي الميئ بالمثل والجمال والخير من أجل الذات الإنسانية لذلك لابد من تناول التراث الإسلامي بمآثره الفكرية المتعددة حتى نستطيع أن نتعرف على علماء ومفكرين أثروا في الفكر الإسلامي بالكثير من أعمالهم وآرائهم في مجال الفسلفة ولإغناء حاضرنا في سبيل استرجاع ماضينا.

وتاريخ حضارتنا والتي شهد بها كل العالم يدلنا على أننا رفعنا لواء الفكر العلمي، وأن حضارتنا من أكبر الحضارات الإنسانية وأعظمها أثراً في المدينة الحديثة وظل هذا الفكر هو النبراس الذي يستضيئ به العرب.

ولعل الميادين العلمية أكبر المواطن محلاً للتفكير واستخراج الحقائق لانها تقوم على الوقائع المادية المحسوسة، فعندما أقول أن قانون ابن سينا ظل يدرس في أوربا حتى القرن الماضي وأن الرازي هو أول ما توصل إلى معرفة التفرقة بين الجدري والحصبة، فإن هذه الوقائع وغيرها لا يستطيع أن يغالط فيها مكابر ويجحدها منكر.

ومما لا شك فيه أن حضارتنا وتراثها المليئ بالقوانين والأصول يكشف عن آفاق العلم والمدينة، وهذا نتيجة مباشرة لحضارتنا العلمية؛ لذا يجب أن ندرس هذا التراث

وما فيه من أفكار بناءه إن كل أمة تحترم عقيدتها وشخصيتها وتاريخها يجب ألا تهمل التراث العلمي وتاريخه، بل يجب أن يكون أساسًا من أسس تاريخها القومي والديني غير مقيد بأساليب المستشرقين والمعتصمين حتى نصل بالعلم إلى الأمام ونسترد مقاليد أيدينا وسيادتنا.

فالتراث العلمي ليس مجرد سرد تاريخ يقوم على الوقائع والأحداث والظواهر الاجتماعية والسياسية بل هو في جوهره فكر وعقيدة له سماته وخصائصه التي تميزه.

أهمية الكتاب:

ترجع أهمية الكتاب إلى عدة نقاط:

أولاً: أننا في حاجة إلى دراسة التراث العربي وإلقاء الضوء عليه لمعرفة مافيه من أصالة وفكر عميق حتى تنهض الأمم لما في التراث من اتجاه شمولي له القدرة على التطوير والحركة العلمية وذلك ييسر علينا معرفة كل شخصية أترث في تراثنا وفكرنا العربي.

ثانياً: إننا في حاجة ماسة إلى إضفاء النزعة العقلية على الموضوعات الفلسفية حتى يستطيع العقل أن يحكم بما يراه صالحاً ويرفض ما يراه غير صالح، لأن العقل هو الملكة الوحيدة الذي يستطيع أن يحكم بها على الأشياء من خلال منظور منطقي محايد بعيداً عن النزعة الحسية المتغيرة والتي تتصف بعدم الحيادية في قراراتها لإضفاء النزعة الشخصية عليها.

ثالثاً: توضيح أهمية تقدم العرب في مجال العلوم الطبية والعلوم الكيميائية ومدى استفادة الغرب من العرب لما لهم من السبق في مجال التشريح والتحاليل والتحنيط وكذلك في المركبات والتفاعلات الكيميائية التي مازال العلماء والمفكرون حتى هذا الوقت لا يستفيدون منها أثناء العمليات الطبية والكيميائية المختلفة.

رابعاً: دراسة الأراء والمعتقدات الدينية ومدى تشابكها مع الفلسفة والتأكيد على وجود خالق أبدع كل شيء في العالم بنظام ودقة متناهية تدل على أن هذا العالم لم يخلق صدفة وإنما خلق بإرادة الله ومقدرته الفائقة.

خامساً: يؤكد البحث على أهمية دراسة النفس وخلودها بعد فناء الجسد لما به من متغيرات فالنفس من جوهر روحاني ثابتة لا يعتريها الفساد فقد خلقها الله وأودعها في الجسد حتى تسطيع أن تروضه ولكنها تظل في حركة مستمرة حائرة بين مطالب الجسد وملذاته وشهواته وبين عالمها عالم المثل والفضيلة،

وتظل هكذا؛ حتى تصل إلى عالم المثل "عالم المعقولات" حيث الجمال والخير والحق بعد فناء الجسد وتخلصها منه، لأن الجسد يعد بالنسبة للنفس مقبرة لا يستطيع الخروج منها أو الفرار إلا بمفارقة الجسد ووصول النفس إلى العالم العلوي حيث الإلهة والخير والكمال بالذات.

أهداف الكتاب:

أولاً: يهدف المؤلف هنا إلى إضفاء النزعة العقلية التي تميز بها الطبيب والفيلسوف الرازي والذي جعل للعقل المنزلة الأولى في الحكم على جميع الأشياء الموجودة في العالم بأسره، فعن طريق العقل الذي حبانا به الله وأودعه فينا نستطيع أن نميز بين ما هو حق وما هو باطل ما هو خير وما هو شر، بين ما هو حسي ومتغير وبين ما هو عقلي ومثالي ومطلق، وهذا العقل هو أعظم نعم الله علينا وإليه ترجع الأمور كلها فنعتمد فيها عليه ونوقفها على إيقافه.

ثانياً: التعرف على شخصية هذا الطبيب والفيلسوف الفريد من نوعه ومدى ما حققه من إنجازات في العلوم الطبيعية والكيميائية والفلسفية والفلكية وغيرها من العلوم الأخرى المتعددة لجدير بالدراسة والبحث والتحليل حتى استطيع أن أقدم رؤية واضحة عن هذا الفيلسوف العملاق ومدى فكرة الغزير الذي يتميز بالوضوح والبساطة في الأسلوب حتى يجعل الذي يقف أمامه يقول عنه أنه بارع وشخصية فريدة من نوعها، لأنه كان يسجل كل ما يشاهده من تجارب وملاحظات بدقة وأمانة وصدق مراعيًا في ذلك الأمانة العلمية في البحث والتحليل.

فكل من عاصره أو عمل معه لقبَّه بأنه أعظم شخصية في مجال العلوم الطبية والكيميائية وغيرها من العلوم الفلسفية الأخرى، ولقبوه "بجالنيوس العرب" فهو يعد حجة الطب في أوربا وطبيب المسلمين غير مدافع، فهو أعظم طبيب عربي أثر في مجرى التفكير الطبي في الغرب حتى القرن السابع عشر نتيجة اكتشافاته الطبية وفي محاولاته المضنية من أجل العلم وتطور الأمة الإسلامية عن طريق التجربة والملاحظة العلمية الدقيقة.

❖❖❖